السلطانة الوالدة خديجة طرخان
دورها السياسي والحضاري في الدولة العثمانية

د. تركية بنت حمد ناصر بن جار الله(*)

أسماء الأفعال:

بلغت الدولة العثمانية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي أقصى اتساع لها في ثلاث قارات عالمية " أوروبا وأفريقيا وآسيا"، ثم بدأت عوامل الضعف تمخر في جسمها، وكان من بين تلك العوامل ازدياد نفوذ الحريم السلطاني[1] في إدارة شئون الدولة داخلياً وخارجياً. وكان من أسباب ذلك ضعف بعض السلاطين أو صغر أعمارهم أثناء توليتهم العرش. كذلك أدى إقبال السلاطين العثمانيين على تعدد الزيجات والقادينات[2] إلى انعكاسات خطيرة في الدولة بما يُرافق ذلك من جوّ صاخب من الغيرة والحقد والتنافس بين نساء القصر، وازدياد المؤامرات التي اشترك فيها الخصيان[3] ورؤسائهم حتى وصل الصراع في بعض الأحيان إلى مجابهات عسكرية بين السلطان وأبنائه أو بين السلطان وإخوانه مما ألجأ بعض السلاطين إلى الاعتماد على نفوذ أمهاتهم في القصر[4]، وهذا ما أسهم في إتاحة الفرصة لهن

(*) مدرس بقسم التاريخ ، كلية الشريعة والدراسات والإسلامية - جامعة أم القرى ، بالمملكة العربية السعوية.

(١) مأخوذة من كلمتي الحرم الهمايوني وهو الاسم الذي أُطلق على القسم الخاص بالنساء في قصر طوب قابي، وكان نساء القصر في قسم الحريم تحت إشراف الخصيان السود. سهيل صابان "المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية"، الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٩١.

(٢) مفردها قادين بمعنى سيدة: محمد علي الأنسي (الدراري اللامعات في منتخبات اللغات)، ص٣٩٧.

(٣) طائفة من العبيد السود أو البيض، ألحقوا بخدمة الحريم السلطاني وتم إجراء عمليات جراحية يُستأصل بموجبها العضو التناسلي أو الخصيتين. عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٠م، ٦٤٠.

(٤) عبدالعزيز الشناوي، المرجع السابق، ج١، ص٥٩٤.

بالتدخل المباشر في شئون الدولة وأدى في الوقت نفسه إلى عصيان ولاة الأقاليم لأوامر السلطان وتجاوزهم المخلّ في تطبيق قوانين الدولة في بلدانهم(١).

ويجب أن لا يُنسى في هذا المجال إقدام بعض السلاطين على الزواج من الكتابيات الأجنبيات وشغفهم بحبهن حتى أصبحوا ألعوبة في أيديهن مما جعلهن يلعبن أدواراً كبيرة في سياسة الدولة الخارجية وفرض سيطرتهن على رجال الدولة البارزين والتحكم في وظائفهم بالعزل والتعيين. ففي مذكرة للسفير الفرنسي دي جرميني De Germigny أرسلها من اسطانبول في ١٥٧٩/١٢/٨هـ إلى وزارة الخارجية في باريس قال فيها: " إن سيدات الحريم السلطاني يقمن بدور كبير في حكم الدولة، وإن السلطانة الوالدة على قمة هذا الفريق من السيدات، فهي تُسيطر على الباشوات، وهي التي تشير بتعيينهم في المناصب الرئيسية في الدولة، وهي التي تضفي عليهم الكثير من مظاهر الرعاية(٢).

وعلى الرغم من تدخل الحريم السلطاني في شئون الدولة وحدوث بعض السلبيات في إدارة أعمالهن كوصيات على العرش، إلا أنه يجب أن لا نطلق صفة العموم ونحكم على أن تدخلهن في شئون الحكم لم يكن في مصلحة الدولة، ففي التاريخ العثماني ما يُثبت بأن الحريم السلطاني كان لهن أعمال خيرية كبيرة وأسهمن بدور فاعل في إثراء الحضارة الإسلامية(٣) وتحمّلن مسئوليات أسهمت في إنقاذ الدولة العثمانية من التدهور ووقوعها فريسة لأعدائها.

من أولئك اللواتي قمن بأعباء المسئولية وكن خير مثال في العمل السياسي والخيري السلطانة الوالدة خديجة طرخان زوجة السلطان إبراهيم الأول (١٠٢٤-

---

(١) سيد محمد سيد، دراسات في التاريخ العثماني، القاهرة: دار الصحوة للنشر، ط١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٨٩.

(٢) عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، ص٦٢٧.

(٣) السلطانة الوالدة ماه بيكر كوسم زوجة السلطان أحمد الأول عندما أصبحت وصية على ابنها السلطان مراد الرابع قضيت على تمّرد الانكشارية وبنت المساجد والأسبلة، وكانت لها أوقاف خيرية على الحرمين الشريفين والقدس: أميرة مداح. " خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين صورة للتضامن الاجتماعي والديني خلال العصر العثماني" ١٠٢٦-١٠٤٩هـ.

١٠٥٨هـ / ١٦١٥- ١٦٤٨م) وهي من أصل أوكراني عنيت بتربيتها وتعليمها أخت زوجها السلطانة عاتكة إحدى بنات أحمد الأول وقدمتها لأخيها إبراهيم[١]، وفي رواية أخرى أنها من أصل أوكراني تم أسرها وعمرها اثنتي عشرة سنة ثم أُهديت إلى ماه بيكر كوسم زوجة السلطان أحمد الأول (٩٩٨-١٠٢٦هـ/ ١٥٩٠-١٦١٧م) والتي بدورها قدمتها هدية لابنها إبراهيم[٢].

وبعد أن كانت خديجة طورخان جارية مأسورة أصبحت بعد زواجها من إبراهيم وإنجابها ولدها السلطان محمد الرابع فيما بعد، تحمل لقب السلطانة الوالدة. والمعروف عند العثمانيين أن السلطانة الوالدة هي تلك التي تنجب ولداً تمييزاً لها عن تلك التي تنجب بنتاً، ويتبع هذا التميّز تمييزاً آخر في المخصصات المالية، وتحصل على رعاية وتقدير على أساس أن ابنها هو ولي العهد، وتقيم في جناح مستقل خاص بها، ويقوم بخدمتها مجموعة من السيدات والفتيات والخصيان ورئيساً لهم يُسمّى أغا[٣] الطوشية أو أغا الخصيان، ويحرس مقر السلطانة والوالدة حوالي أربعين خصياً[٤].

وقبل أن تصبح خديجة طورخان في سدّة الحكم كوصية على عرش ابنها البالغ من العمر آنذاك سبع سنين كانت أوضاع الدولة العثمانية في حالة يُرثى لها ولمعرفة دورها في إنقاذ الدولة من الحالة التي وصلت إليها فإنه لابد من معرفة تلك الأوضاع بشكل مختصر جداً.

كانت أوضاع الدولة العثمانية قبل وصاية السلطانة الوالدية خديجة طورخان يسودها الاضطراب وعدم الاستقرار، فالإدارة العثمانية تفشت فيها مظاهر الفساد،

---

(١) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج١ اسطانبول: مؤسسة فيصل للتمويل، ط١، ١٩٨٨م، ص٤٩٨.
(٢) ماجدة مخلوف، الحريم في العصر العثماني، القاهرة: دار الآفاق، ١٤١٨هـ، ص٤٦٠.
(٣) مصطلح من أصل فارسي ويعني السيد، ويدعى من يرعى شئون الحريم السلطاني أغا الحريم وهو مخصي ويعمل في الأقسام الخاصة بالنساء وكان أكثرهم يأتون من الحبشة يهديهم والي مصر إلى السلطان، وكان لهم مناصبهم ودرجات في القصر. سهيل صابان، " المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية " ، ص١٥، ١٧.
(٤) الشناوي، عبدالعزيز، مرجع سابق، ص٥٦٩.

وقادة الجيش الذين كانوا على رؤوس فرقهم العسكرية في جبهات القتال أصبحوا يتخبطون في المؤامرات وتنصيب السلاطين وإعفائهم، والعامل الديني الذي كان المحرك الأول للفتوحات العثمانية في أوروبا لم يعد كما كان حيث أصبح رجال الدولة من سادة وجنود مهتمون بجمع المال وملذات الدنيا(١).

ووصف المؤرخ إسماعيل سرهنك حالة الدولة بالعبارات التالية:

" كانت أحوال الدولة في أشدّ المضايقة، وماليتها على شفا الإفلاس، وجنديتها البرية دبّت بينها عوامل التحزّب والانحطاط، وأباد البنادقة أساطيلها في عدّة مواقع، واستولوا على عشر جزر مهمة ببحر الأرخبيل، كل ذلك والدولة في حالة سبات وخمول لا تتمكن من رتق فتق إلاّ وقد فُتح فيها فتوق، ولا تقدر على سدّ شق إلاّ واتسعت منها شقوق "(٢).

ومما زاد الأمر سوءاً في الدولة ازدياد ظاهرة عزل وقتل السلاطين والصدور العظام(٣). وقد شهد النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي اضطرابات ومجابهات اشترك فيها الجيش والعلماء ورجال الدين أدت في النهاية إلى قتل وعزل عدد من السلاطين والصدور العظام(٤). وقد ساعدت هذه الأحداث على تمرّد الجيش فوقعت الدولة فريسة للعدوان الخارجي، فتحكمت البندقية في المضائق وموانئ البحر المتوسط، ولم تجرؤ الدولة العثمانية على مقاومتها

---

(١) مجهول المؤلف، إتحاف الملوك الألباب، ترجمة خليفة محمود، ص١٧٩.

(٢) إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، بيروت: دار العلم، ١٤٠٨هـ، ص١٦٧.

(٣) مفردها الصدر الأعظم وهو رئيس الديوان العالي أو الباب العالي الذي يتكون من الوزراء والمفتي، وإذا غاب عن الديوان لظروف ما ينوب عنه المفتي ويعادل رئيس الوزراء حالياً وكان يُسمى بالوزير الأعظم ويلقب بالصدر العالي وصاحب الدولة، ولديه ختم السلطان وينوب عنه في كل أمور الدولة (سهيل صابان، المعجم الموسوعي، مرجع سابق، ص١٤٤).

(٤) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت، دار الجيل، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص١٢٣-١٢٩.

وتكبدت هزائم متتالية كان من نتائجها تدمير ست سفن عثمانية وأسر أكثر من ألف أسير من الجيش العثماني(١).

أضف إلى ذلك أن الفترة التي سبقت وصاية السلطانة الوالدة خديجة طرخان مباشرة شهدت وضعاً اجتماعياً سيئاً للغاية أسهم هو الآخر في تحجيم وضع الدولة السياسي والوصول بها إلى حافة الهاوية. هذا الوضع الاجتماعي يتعلق بما آلت إليه الدولة من تدهور وفساد إداري وأخلاقي خلال عهد السلطان إبراهيم الأول (١٦٤٠-١٦٤٨م).

لقد رأت السلطانة الوالدة خديجة طرخان بأم عينيها سيدات الحريم السلطاني وهن يتحيّن الفرص لتحقيق مزيدٍ من النفوذ أثناء تولّي السلطان إبراهيم الأول الحكم متذرعات بولعه الشديد بالنساء وميله إليهن أكثر من اهتمامه بشؤون الدولة. يقول المؤرخ العثماني إسماعيل هرسنك " هام بهن شغفاً ولازم الحرم (مكان الحريم) فصار لا يخرج منه، وقد أثر ذلك على صحته فأصبح نحيلاً ضئيلاً، ولهذا حاز نساء السّراي السلطانية نفوذاً عظيماً، وتداخلن في أمور الدولة بأجمعها(٢).

وأورد مؤلف كتاب " إتحاف الملوك الألباب " رواية مفادها أن السلطان إبراهيم من شدّة غرامه بالنساء حفر لنفسه بنفسه حتى تمّ عزله وشنقه، وقصة ذلك أنه سمع بأن بنت مفتي الدولة المسماة " راجيل " قلّ مثلها في الجمال في اسطانبول، فطلبها من أبيها واعتذر له بحجة أن القوانين لا تسمح لبه بالزواج إلاّ من محظيات سرايته، وأن ابنته غير ذلك ولا يرضى أن يقدمها إلى السلطان كجارية محظية، ثم أن السلطان كلف بعض خواصه بخطفها، وتم ذلك عندما خرجت بنت المفتي مع خواصها إلى الحمام، وذهبوا بها إلى السلطان ولكنها لم تخضع له ولم تستجب لأوامره، فاضطر إلى إرسالها إلى دار أبيها. فلما علم المفتي بذلك اغتاظ كل الغيظ لأنه اعتبر هذا العمل من السلطان انتهاك للحرمات ومخالفة لقوانين الدولة، فأخذ

(١) Shaw.S.History of the Ottoman Empire and modern Turkey. London: Cambrdge University. Press .p.٢٠٧

(٢) إسماعيل هرسنك، مصدر سابق، ص١٥٠.

يجتمع مع العلماء وزعماء الجيش الانكشاري واتفقوا جميعاً على إصدار قرار بعزل السلطان ثم انتهى الأمر بقتله[1].

هذا الوضع الذي عاشه السلطان إبراهيم سمح بتسلط الأغوات ونهب خزانة الدولة[2] وإعلان الثورة ضده، وقيل بأن والدته السلطانة كوسم ماه بيكر أسهمت هي الأخرى في حركة التمرد ضد ابنها حيث كانت تعشق السّلطنة والسّياسة، وتتهم ابنها بتهديدها وإبعادها ونفيها إلى رودس في حالة استمرارها في التدخل في شئون الحكم[3]، فعملت مع الثوار ضدّه ولم تكتف بخلعه من السلطة بل سلمته بعد عشرة أيام إلى الجّلاد لقتله[4]، ثم أصبحت وصية على العرش خلال حكم حفيدها السلطان محمد الرابع وهو لم يتجاوز الرابعة من عمره، وبقيت في هذه الوصاية مدّة ثلاث سنوات وست وعشرين يوماً[5].

ويظهر أن ما ورد حول مشاركة ماه بيكر في الثورة ضدّ ابنها ومن ثم عزله وقتله أمر مبالغ فيه، وليس من المعقول أن تفقد الأم حنان الأمومة وقوّة العاطفة وتتصرف عكس الفطرة الإلهية التي أوجدها الله تعالى في قلوب البشر. والأكثر غرابة في هذا الموضوع أن هذه المعلومات المبالغ فيها وردت في مصادر عثمانية وليست في مصادر غربية. أما فيما يتعلق بميل السلطان إبراهيم الشديد إلى النساء أكثر من اهتمامه بشؤون الدولة فهو أمر مبالغ فيه أيضاً وإن كان فيه شيء من الحقيقة.

لم تكن خديجة طرخان راضية عن تسلّط الجدة على ابنها الصغير والتحكم في شؤون الدولة، فاشتدت المنافسة بينهن، واستعانت الجدّة في منافستها على الجيش

---

(١) مؤلف مجهول. إتحاف الألباب، مصدر سابق، ص٣٧٦-٣٧٧.

(٢) عثّر على مبلغ خمسة ملايين سكة ذهبية لدى أحد جنرالات الانكشارية خلال فترة التمرد ضد السلطان إبراهيم (يلماز، مصدر سابق، ص٤٩٨).

(٣) أبو الفاروق محمد مراد، تاريخ عثمانيدة، ج٦، ط١، اسطانبول، مطبعة آمدي، ١٣٢٩هـ، ص٣٢.

(٤) يلماز، مصدر سابق، ٤٩٨. هامر، تاريخ دولت عثمانية، ترجمة محمد عطا، ج١٠، اسطانبول مطبعة سي ١٣٣٧هـ، ص١٢٠.

(٥) المصدر السابق، ص٤٩٦.

الانكشاري بينما اعتمدت خديجة طرخان على الأغوات الخصيان، وفي الليلة التي خُطّط لها لقتل خديجة طرخان، وبعد أن وصل الجيش الانشكاري إلى أبواب جناحها شعر الحرس الخاص بخديجة طرخان بالأمر وتم اكتشاف المؤامرة فما كان منهم إلاّ التوّجه نحو الجدّة ماه بيكر فوجودها مختفية في أحد الدواليب في غرفة نومها فلم يتردد الحراس من قتلها على الفور وذلك سنة ١٦٥١م[١].

بعد هذه الحادثة أصبحت خديجة طرخان السلطانة الوالدة الوصية على عرش ابنها وكان أكثر ما يؤرق تفكيرها أنّ الدولة بحاجة ماسة إلى مسؤول ملهم يقود السفينة إلى برّ الأمان، وأقلقها كثيراً ما تمرّ به الدولة من فتن وحروب في الداخل والخارج أسفرت عن قتل وعزل عدد من الصدور العظام[٢] مما أسهم في ضعف الدولة وشلّ قدرتها على مقاومة أعدائها في الخارج. أضف إلى ذلك أنها لاحظت بنفسها ضعف الصدر الأعظم جوردج (Gourdj) البالغ من العمر مائة عام وعدم قدرته على إدارة شئون الدولة فضلاً عن خضوعه المطلق لتوجيهات المتنفذين في الديوان، فلم تملك أعصابها ذات يوم حيث صاحت في وجهه قائلة: " يا أبتي إن المسألة ليست لحية ذات شعر أبيض وأسود، إن المسألة أعمق من ذلك بكثير، إنها تحقيق الحكم الصالح وإيداء الآراء السديدة ".

وإذا كان عمر الصدر الأعظم بلغ مائة عام فإنه بلا شك قد فقد السيطرة على الأوضاع بحكم سنّه، وقد يستغلّ المقربون منه من ذوي الأطماع الشخصية الفرصة لتنفيذ مآربهم وأهدافهم التي قد تضر بمصالح الدولة، فرأت السلطانة الوالدة خديجة طرخان أنه حان الوقت لاختيار صدراً أعظماً يليق بالمهمة ويتحمل أعباء المسؤولية ويأخذ بالسفينة إلى برّ الأمان. فرأت أهمية استشارة من تثق فيهم من رجال البلاط، فأشار عليها أحدهم وهو قاسم أغا البالغ من العمر ثمانين سنة بأن يُرشّح لهذه المهمة الوزير محمد كوبرلي باشا البالغ من العمر واحد وسبعين عاماً، فهو في نظره الرجل

---

(١) كامل صدر أسبق، تاريخ سياسي دولت علية عثمانية، ج٢، مبطعة أحمد حسان، ١٣٢٧هـ، ص٥٣.

(٢) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح سعداوي، اسطانبول ١٩٩٩م، ج١، ص٥٦.

المناسب في المكان المناسب، وأنه على الرغم من كبر سنه إلا أنه صاحب تجربة وخبرة يفوق غيره من الوزراء. وزاد على ذلك أن عدداً من المستشارين أثنوا عليه ورأوا بأنه الخيار الأفضل في إدارة شؤون الدولة وإنقاذها من الأزمات التي وصلت إليها.

ولم تتردّد السلطانة الوالدة في الموافقة على ترشيحه للصدارة العظمى وطلبت مقابلته بصفة سرية، وعندما اجتمعت به كانت تتوقع بأنه سيقبل الترشيح لهذا المنصب الرفيع، ولكن الذي حدث أنه أدهشها كثيراً عندما عرض موافقته مقابل عدد من الشروط، فوافقت على شروطه بعد أن رأت بأنها تصب في مصلحة الدولة وكانت على النحو التالي:

١- أن يُصادق على أي طلب أو مكاتبات قبل أن تصل إلى السلطان لأخذ الموافقة عليها.

٢- لا يجوز لأي وزير أو موظف في الدولة مهما كانت رتبته أن يقرّر بشأن الطلبات المرفوعة إلى السلطان دون علمه وموافقته.

٣- أن تكون التعيينات في وظائف الدولة أياً كانت من اختصاصه.

٤- يجب على السلطان أن يُعطيه الثقة المطلقة وأن لا يسمح للوشاية ضدّه من أعدائه وتكون ثقة السلطان فيه مطلقة(١).

لم تكن هذه الشروط بالأمر السهل على السلطانة الوالدة ولا كذلك على ابنها الصغير الذي لا يُدرك بعد مسؤوليات الدولة، ولكن الوضع المتأزم في داخل البلاد وخارجها جعلها توافق على شروطه وتُعلن ذلك أمام الملأ وتقسم أمام كبار الشخصيات نيابة عن ابنها بأن الشروط التي طلبها الوزير محمد كوبرلي سيتم الأخذ

---

(١) أبو الفاروق محمد مراد " تاريخ عثمانيدة " ج٦، ص٣٧١.

Kinross,Loid. The Ottoman Ceuturies. London : Jonathan Cape. ١٩٧٧, P. ٣٣٢.

يوسف الثقفي. لمعان الضوء في دياجير الظلام، مجلة المؤرخ العربي، العدد الأول، المجلد الأول، القاهرة: ص٢٣٣ .

بها وتنفيذها. بعد ذلك أصدر المفتي قراراً بالمصادقة على تلك الشروط، ثم ذهب الوزير إلى موقع السلطان الصغير حيث تم استقباله وتمت مباركة القسم الذي أعلنته والدته وتم ترشيحه رسمياً صدراً أعظماً للدولة(١).

بدأ الصدر الأعظم محمد كوبرلي بممارسة عمله بعد مراسم التعيين مباشرة، وأصبحت شئون الدولة جميعها تحت تصرفه دون تدخل من السلطانة الوالدة أو ابنها الصغير. وكان لتجاربه الطويلة في خدمة القيادات الرسمية والصدور العظام، إضافة إلى تنقله في الوظائف المختلفة قبل تولّيه منصب الصدارة العظمى الأثر الحسن في نجاح أعماله، حيث أدرك عن قرب أمراض الدولة التي تعاني منها وكيفية التعامل معها، وتعرّف على رجال الدولة وما يقوم به بلاط القصر من أعمال، فأصبح بذلك رجل التجربة والخبرة والحكمة، وبدأ يتصرف بعقل متيقظ، رحيم وقت الرحمة، متنبه لمراقبة المستهترين وضارباً بيد من حديد على كل من يريد الإخلال بالأمن، وملتزماً بالهدوء وضبط النفس ومعاملة الرعية بالعدالة دون تمييز في المناصب(٢).

لقد نجحت السلطانة الوالدة في اختيار محمد كوبرلي صدراً أعظماً للدولة، فهو الصدر الحادي عشر خلال ثمانية أعوام حيث لم ينجح الصدور العظام قبله في حلّ أزمات الدولة وأوضاعها المتردية، وكان الصدر الجديد عند حسن ظنّ السلطانة الوالدة، وانطلق على الفور في العمل الإصلاحي في مجالات الإدارة والاقتصاد والسياسة.

ففي مجال الإدارة أيدت السلطانة خديجة طرخان فكرة الإعلان على الملأ ضرورة معاقبة المقصرين في أداء أعمالهم الوظيفية مهما كانت مراتبهم. وتشير المصادر التاريخية أن تطبيق العقوبات طالت بعض القيادات العليا في الدولة وتم استبدالهم بغيرهم دون أخذ موافقة السلطانة الوالدة(٣). كما أيد الإجراءات العقابية التي اتخذها الصدر الأعظم ضدّ رئيس الخصيان الأسود بسبب عدم تأدية واجبه الوظيفي

---

(١) Kinross. The Ottoman Ceuturies, P. ٣٣٢.

(٢) يوسف الثقفي، لمعان الضوء في دياجير الظلام، ص٢٣٥.

(٣) كامل، صدراً أسبق، مصدر سابق، ص٩٢.

كما هو مطلوب منه، وتم نفيه إلى مصر ولم تشفع له في ذلك كونه مستشاراً خاصاً للسلطانة الوالدة[1].

وفي مجال الاقتصاد لاحظ الصدر الأعظم بأن المقار الحكومية تصرف أموالاً كبيرة في غير المشروع لها فأمر على الفور بإلغاء تلك المصروفات ما عدا الإنفاق على احتياجات مهمّة وذات تأثير على أعمال الدولة. إضافة إلى أن السلطانة الوالدة أخذت برأي الصدر الجديد في مصادرة بعض الأملاك الخاصة المكتسبة بطرق غير شرعية بحيث تعود أرباحها إلى الخزينة العامة[2].

أما في المجال السياسي فقد أفادت خديجة طرخان من خبرة وزيرها ليعمل على بناء الأسطول وقيادة الحملات العسكرية ضد البنادقة، وعلى الرغم من تنفيذ هذا العمل العسكري إلا أنه أخفق في مواجهة سفن البنادقة في المواجهات الأولى ثم أن رجال البحر العثمانيين تمكنوا في النهاية من ضرب سفن البنادقة بالمدافع وإحراق عدد منها، وتم تحرير جزيرتي ليمنوس وتيندوس[3]. ثم حدث أنه في عام ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٨م تمرّد على الدولة العثمانية جورج راكوزي أمير ترانسلفانيا بهدف الاستقلال عن التبعية العثمانية، ولما علم الصدر الأعظم بتحركاته في سنة ١٦٥٥م بادر بمواجهته بقوة كبيرة دخلت ترانسلفانيا وهزمته شرّ هزيمة مما جعله ينسحب إلى فستولا ثم هروب إلى النمسا[4]. كما فضل الصدر الأعظم منح حكم ترانسلفانيا لأحد أتباع راكوزي مشترطاً عليه التبعيّة ودفع جزية سنوية تعادل أربعين ألف دوقة[5]. ويبدو أن الصدر الأعظم أراد بهذا التصرف تهدئة الأوضاع وإبعاد المنطقة عن جوّ التوتر والتوارث التي قد يفيد منها أعداء الدولة العثمانية.

---

(١) Eversly. The Turkish Empire : Its Growth and Decay . London: Fisher union Ltd. ١٩١٧, p. ١٨٠

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٥١٧.

(٣) أبو الفاروق، تاريخ عثمانيدة، ج٧، ص٩٦، إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، ص٧٣.

(٤) أكمل الدين أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مصدر سابق، ج١، ص٥٦. تاريخ أبو الفاروق، مصدر سابق، ص١٢٢ .

(٥) تاريخ أبو الفاروق، مصدر سابق، ص١٢٢.

وفي الداخل تمرّد في نفس العام حسن أباظة مطالباً بحكم الأناضول وواعداً أتباعه بإصلاحات اقتصادية واجتماعية[١]، ولكنه لم ينجح في ذلك حيث تمكن الصدر الأعظم من إخماد ذلك العصيان بقوّة فعادت الأمور إلى نصابها[٢]. أضف إلى ذلك اهتمام الوزير بتأسيس القلاع حول مضيقي البوسفور والدردنيل وبعد الانتهاء من بناءها توجه برفقة والدته خديجة طرخان لمشاهدتها[٣].

وفي مجال العمل الإنساني والديني. فقد أوردت المصادر التاريخية اهتمامها ببناء وترميم المساجد وبذلها أموالاً طائلة في سبيل هذه الأعمال[٤]، كما قامت بإنشاء مدرسة دار الحديث، وقامت بتعمير السُبل والأسواق، وقيل بأن لها أوقاف تهتم بالعمل الخيري لمساعدة الضعفاء والفقراء واليتامى[٥].

وهكذا تحدثت فيما سبق عن شخصية تاريخية تحملّت مسئولياتها تجاه الدولة، ورعت مصالحها باختيار العاملين الأكفاء ووجهت ابنها السلطان بما يجب عمله في السياسة الداخلية والخارجية، ومع ذلك فالأعمال الإيجابية التي تحققت في الدولة العثمانية خلال فترة وصايتها على ابنها السلطان محمد الرابع، سواء في الجانب السياسي أو الحضاري ما هي إلاّ إنجازات في فترة زمنية محددة، وهناك حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أن تدخل الزوجات في شئون الحكم وتأثيرهن على السلاطين أسهم مع مرور الزمن في ظهور الصراعات في داخل الأسرة الحاكمة وكذلك بروز العناصر الأجنبية في مناصب الدولة العليا، الأمر الذي أدى في النهاية إلى إضعاف هيبة الدولة العثمانية ومن ثم سقوطها فريسة بيد أعدائها.

---

(١) أكمل الدين أوغلي، الدولة العثمانية، ج١، ص٥٦.

(٢) المصدر السابق، ونفس الصفحة.

(٣) يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ج٢، ص٥٠٠ .

(٤) المصدر السابق، ص١٥١.

(٥) Erdem, vakiflar Yapan Kadinlar ٢, Mari ١٩٧١, ٥٤٥.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية :

١) أبو الفاروق محمد مراد، تاريخ عثمانيدة، ج٦، ط١، اسطانبول، مطبعة آمدي: ١٣٢٩هـ.

٢) إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، بيروت، دار العلم: ١٤٠٨هـ.

٣) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية، صالح سعداوي، ط١، اسطانبول: ١٩٩٩م.

٤) أميرة مداح، خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين صورة للتضامن الاجتماعي والديني خلال العصر العثماني: ١٠٢٦-١٠٤٩هـ.

٥) سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض، مطبوعات مكتبة الملك فهد: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٦) سيد محمد سيد، دراسات في التاريخ العثماني، القاهرة، دار الصحوة للنشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٧) عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ط١، القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة: ١٩٨٠م.

٨) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارسي، ومنير البعلبكي، ط٦، بيروت، دار العلم للملايين: ١٩٧٤م.

•. ...مر صدر أسبق، تاريخ سياسي دولت علية عثمانية، ج٢، مطبعة أحمد حسان: ١٣٢٧هـ.

...جنه مخلوف، الحريم في العصر العثماني، القاهرة، دار الأوقاف: ١٤١٨هـ.

، محمد علي الأنسي، الدراري اللامعات في منتخبات اللغات.

١٢) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت، دار الجيل: ١٣٩٧هـ.

١٣) مجهول المؤلف، إتحاف الملوك الألباب، ترجمة خليفة محمود.

١٤) هامر، تاريخ دولة عثمانية، ترجمة محمد عطا، ج١٠، اسطانبول، مطبعة سي: ١٣٣٧هـ.

١٥) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج١، اسطانبول، مؤسسة فيصل للتمويل، ط١: ١٩٨٨م.

١٦) يوسف الثقفي، لمعان الضوء في دياجير الظلام، مجلة المؤرخ العربي، العدد الأول، المجلد الأول، القاهرة.

ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية:

1) Erdem, vakiflar yapan kadinlar 2,kari 1971.

2) Eversly. The Turkish Empire: Lts Growth and Decay. London: Fisher unin Ltd. 1917.

3) Kinross, loid. The Ottoman Ceuturies. London: Jonathan Cape. 1977.

4) Shaw. S. History of the Ottoman Empier and modern Turkey. London: Cambridge University. Press.

١- هي أسماء قامت مقامها أي: مقام الأفعال في العمل غير متصرفة تصرف

* * *